الدكتور شيخ امحمد

محاضـــرة

عبد الحميد إبن باديس

ولِد ابن باديس في شهر ديسمبر 1889 وسط أسرةٍ من أكبر الأسَر في مدينة قسنطينة والتي يمتدّ نسَبُها إلى أسرة المعز الصنهاجي، وهي إحدى الأسر التي حكمت الجزائر. ورغم كونه من أصولٍ أمازيغية مجيدة، إلا أن ابن باديس كان يفاخر بعروبته وإسلامه تلقى عبد الحميد ابن باديس تعليمه الأولي فلم يرد والده ادخاله المدارس الفرنسية ، وإنما حرص على تنشئته على تربية إسلامية خالصة ، فدرس على يد الشيخ محمد المداسي، فحفظ على يده القرآن الكريم وتجويده ، فكانت نشأته على حب القرآن و التحلي بالأخلاق الحميدة ، وحين أتم حفظ القران كان عمره لا يتجاوز ثلاثة عشر ،تقدم لإمامة الناس في صلاة التراويح في الجامع الكبير، ثم بدأ يتلقى دراسة علوم اللغة العربية والإسلامية على يد الشيخ حمدان الونيسي الذي كان له تأثير كبير في اعتزاز أبن باديس بالثقافة العربية الإسلامية، ثم سافر سنة 1908 إلى تونس لإكمال دراسته العليا في جامع الزيتونة، وفي حيث درس ألأدب العربي على يد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتفسير القرآن على يد العالم محمد النخلي ، والتاريخ العربي الإسلامي على يد الأستاذ البشير الصفر، وكان هؤلاء العلماء الثلاثة من خيرة أساتذة الزيتونة ورواد النهضة في تونس ، وبعد أربع سنوات في جامع الزيتونة نال شهادة العالمية ، وأثناء أقامته في تونس تواصل مع الكثير من الشخصيات الدينية والسياسية والأدبية لمناقشة الظروف التي يمر بها المغرب العربي في ظل الإستعمار الفرنسي المتسلط، الذي كان يهدف إلى طمس معالم الهوية العربية ، فأسهمت هذه الحوارات وقراءاته المعمقة في أثراء وأغناء ثقافته ورؤاه الفكرية

والسياسية ، وفي سنة 1912 عاد الى الجزائر وهو يتطلع الى الإصلاح والتجديد لمواجهة التحديات التي تتعرض لها الجزائر

بعد أدائه مناسك الحج بمكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث توجه إثر انتهاء دراسته في تونس، تعرف عن كثب على حركة الوهابيين الإصلاحية المتشددة وهي في أوج انتشارها بالبقاع المقدسة. واجتمع مجددا، خلال إقامته بالمدينة المنورة، بحمدان لونيسي، أول أساتذته، الذي انتقل للإقامة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث باشر تعميق معارفه على يديه وعلى يد أساتذة آخرين.

بعد عودته إلى الجزائر، امتهن بادئ الأمر، من سنة 1913 إلى سنة 1925، التعليم والتنشيط الثقافي، قبل أن يكرس طاقته ويوجهها لإصلاح الممارسات الدينية السائدة في البلاد. وخلافا للرأي الذي أشاع له مؤرخون وناشرون، فإن الحركة الإصلاحية الدينية في الجزائر لم تولد من العدم على أيدي ابن باديس ورفاقه.

ذلك أن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد شهدتا بروز مفكرين إصلاحيين تمثلهم مجموعة من العلماء والأساتذة المقتدرين بالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان وغيرها، من أمثال الشيخ مجاوي والشيخ بن سماية والشيخ بن على فخار، الذين أدانوا الممارسات الظلامية لبعض الطرق الدينية وتلك المتصلة بمن كانوا يعتبرون أولياء صالحين، لورعهم أو نسبهم. كما نددوا بسيطرة إدارة الإحتلال على الشؤون الدينية والإسلامية. وقد التقى الشيخ محمد عبده، خلال زيارته سنة 1905 إلى الجزائر العاصمة وقسنطينة، بالعديد من هؤلاء العلماء المعلمين.

وقد تطورت الحركة الإصلاحية في الجزائر ما بين الحربين العالميتين بفضل ما بذله ابن باديس ومجموعة من أتباعه الأوفياء، من قدامى تلاميذه ومن رفاق له تلقوا، في معظمهم، تكوينهم بتونس أو في الشرق الأوسط. وقد استرشدت هذه الحركة بفكر ونشاط

محمد عبده ورشيد رضا، لكنها اتسمت، كذلك، بميسم أفكار الوهابيين المتزمتة، بل المتشددة في أحيان كثيرة، حيث أخذت عنهم عديد الأفكار والممارسات.

وكان هدف ابن باديس، العقل المدبر والقائد المنشط لهذه الكوكبة، الذي اجتمعت فيه صفات النزاهة والأمانة الفكرية اللامتناهية والذي هام حبا بالجزائر ولغتها ودينها، هو تطهير الإسلام الجزائر من كافة الممارسات التي لا تتفق مع القرآن والسنة من حيث هما المصدران الوحيدان للعقيدة الإسلامية. هؤلاء الرجال المتفانين والمتطوعين كانوا يرومون جميعهم، عن طريق التربية والكتاب والصحافة، بعث سنة السلف الصالح في عهود الإسلام الزاهرة الأولى، مع تكييفها مع ما تقتضيه آفاق التفتح على حداثة معتدلة. كان على المسلمين، في نظرهم، أن يجعلوا السلف الصالح مثلهم الأعلى فأطلقوا على أنفسهم، اسم السلفية، مثلما كان الحال في الشرق الأوسط. كما عرفوا باسم الإصلاحية.

قام عبد الحميد بن باديس، ابتداء من سنة1925 بنشر جريدة المنتقد حيث نشر الأفكار الإصلاحية.

لكنهامنعت من الصدور وبعدهاأصدر الشهاب، التي صدرت من1925 إلى1939 ، انضم ابن باديس ورفاقه، سنة 1931، لشيوخ أهم الطرق الدينية و أنشأوا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. تم انتخاب عبد الحميد بن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال اجتماع للجمعية العامة التأسيسية، بنادي الترقي، بالجزائر العاصمة، سنة 1931، ضم رفاق وتلامذة الشيخ وأتباعه ومندوبين من داخل البلاد. وكان مجلس الإدارة الأول للجمعية يضم: الطيب العقبي، مبارك الميلي، البشير الإبراهيمي والعربي التبسي.

وإذا كان ابن باديس نفسه، الذي يقدم على أنه متصوف، لم يعتمد دائما القسوة تجاه الطرق الدينية بحكم تحليه بفضائل الاستماع والتسامح التي تليق بواحد من أتباع ابن عربي وجلال الدين الرومي، فإن أعضاء آخرين في الجمعية أظهروا، عكس ذلك، تشددا

عقائديا أدى إلى انقسام بعض مدن البلاد إلى معسكرين متعارضين تحدث بينهما مواجهات حول علوم الدين والأخلاق والممارسة اليومية للشعائر الدينية. وقد قادوا، مرارا، حملات قاسية، بل عمدوا في بعض الأحيان إلى الشتم والتجريح والتشهير والسخرية ضد أتباع الممارسات الدينية الشعبية.

وقد شرع الإمام ابن باديس رحمه الله تعالى في العمل التربوي، وانتهج في دعوته منهجًا يوافق الفكر الإصلاحي في البعد والغاية، وإن كان له طابع خاص في السلوك والعمل يقوم على ثلاثة محاور أساسية، يظهر أعلاها في إصلاح عقيدة الجزائريين بالدرجة الأولى، ببيان التوحيد الذي يمثّل عمود الدعوة السلفية، وما يضادّه من الشرك، ذلك لأنّ التوحيد هو غاية إيجاد الخلق، وإرسال الرسل، ودعوة المجدّدين في كلّ العصور والأزمان، لذلك كانت دعوته قائمة على أخذ العقيدة من الوحيين وعلى فهم الأوّلين، والتحذير من الشرك ومظاهره، ومن بدعة التقليد الأعمى، ومن علم الكلام وجنايته على الأمّة، ذلك لأنّ من أهمّ أسباب ضياع التوحيد ابتعاد الناس عن الوحي وفُشُوّ علم الكلام والخوض فيه واتباع طرقهم الضالة عن سواء السبيل، ومرض الجمود الفكري والركون إلى التقليد .

لذلك ظهرت عنايته الأكيدة بتربية الجيل على القرآن وتعليم أصول الدين وعقائده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إذ كان همّه تكوين رجال قرآنيين يوجّهون التاريخ ويُغيّرون الأمّة، وقد تجلّى ذلك في بعض مقالاته حيث يقول رحمه الله: «فإنّنا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كلّ يوم.«... وقد اعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس أنّ سبيل النجاة والنهوض يكمن في الرجوع إلى فقه الكتاب والسنّة وعلى فهم السلف الصالح، ذلك لأنّ علماء السلف إن اتفقوا فاتفاقهم حجّة قاطعة، وإن اختلفوا فلا يجوز لأحد أن يخرج عن أقوالهم ، ولما رأى رحمه الله تعالى أنّ الحلقات العلمية في المؤسّسات التربوية والدروس المسجدية لا تفي بنشر دعوته على نطاق واسع وشامل، ولا تحقّق غاياتها السامية المسطّرة لها، إلاّ بتعزيزها بالعمل الصحفي مع

توفير شروط نجاحه بتأمين مطبعة خاصة له على وجه الامتلاك، أقبل على تطبيق فكرته في سبيل الإصلاح وتجديد الدين بتأسيس أول صحيفة جزائرية بالعربية وسُميت بـ«المنتقد» كمرحلة معضدة قصد الدخول في التطبيق العملي لمقاومة المناهج العقدية والسلوكية التي كان ينشرها رجال التصوّف)٩ (وأرباب الطُّرُق من الزوايا وأماكن الأضرحة والقبور، وقد تَغَلْغَلَ كثير من تلك الضلالات والمعتقدات الفاسدة في صفوف الدهماء والعوامّ وعند بعض الأواسط المثقّفة، وتجسّد شعارها في عبارة «اعتقد ولا تنتقد»، وقد كان اختياره لعنوان صحيفته يهدف إلى القضاء على هذا الشعار أوّلاً، وإزالة فحواه كدعوة ثانيًا، أي: تحذير الناس ممّا يحتويه الشعار من ضلالات ومفاسد مبنًى ومعنًى، وإرادة التغيير مع الالتزام بالنقد الهادف ببيان الحقيقة بِنَزاهة وصدق وإخلاص، غير أنّ هذه الصحيفة لم تعمّر طويلاً وتوقّفت بسبب المنع الصادر من قبل الحكومة الفرنسية بإيذاء خصوم الدعوة والحقّ.

قد عمل ابن باديس خلال فترات حياته على تقريب القرآن الكريم بين يدي الأمّة مفسّرًا له تفسيرًا سلفيًّا، سالكًا طريق رُوّاد التفسير بالمأثور، معتمدًا على بيان القرآن للقرآن، وبيان السنّة له، آخذًا في الاعتبار أصول البيان العربي، كما كانت عنايته فائقة بالسنّة المطهرة وبالعقيدة الصحيحة التي تخدم دعوته الإصلاحية، فوضع كتابه «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، على نهج طريق القرآن في الاستدلال المتلائم مع الفطرة الإنسانية، بعيدًا عن مسلك الفلاسفة ومنهج المتكلّمين، وحارب البدع والتقليد والشرك ومظاهره والتخلّف ودعا إلى النهضة والحضارة في إطار إصلاح الدين والمجتمع ساانده علماء أفاضل في دعوته ومهمّته النبيلة، كما ساعدته خبرته بالعلوم العربية –آدابها وقواعدها– لذلك جاء أسلوبه في مختلف كتاباته سهلاً مُمتنعًا، بعيدًا عن التعقيد اللفظي، وكذا شعره الفيّاض، هذا بغضّ النظر عمّا كان عليه من اطلاع على المذاهب الفقهية المختلفة كما هو ملموس في فتاويه المتعدّدة، فضلاً عن مذهب مالك . رحمه الله .، ومن علم بالأصول متمرّسًا بأسلوبه ومتزوّدًا بقواعده مع الإدراك الصحيح والفهم التامّ.

ولعل هذا الموقف هو اول ما فتح عليه عيون سلطات الادارة الفرنسية . وبذلك يكون ابن باديس من بين القلة من المصلحين في العصر الحديث ممن اتيحت لهم فرصة التطبيق العملي لأفكارهم ومبادئهم .

امتاز فكر عبد الحميد ابن باديس بكونه شكل قدرة ابداعية مميزة بمقاييس القدرة النقدية التنويرية التي تميز بها خلال النصف الاول من القرن العشرين ، ومما لاشك فيه ان ابن باديس استطاع ان يسجل اسمه بين كبار المفكرين الاسلاميين المعاصرين اثارة للجدل والاهتمام والثقافة الحداثية في عصره . ولا بد من الاقرار بصعوبة دراسة شخصية ابن باديس لغناها الفكري المتنوع ونشاطها في مختلف المجالات ، نرى ان فكر ابن باديس يمكن ان يوظف كآليات مستحدثة للقرن الواحد والعشرين في المناهج الدراسية لمختلف مراحل التعليم وصولا للجامعة بعيدا عن لغة العنف الرمزي التي تبثها بعض المحطات الإذاعية والقنوات الفضائية ، وان توظف بعض مفردات فكر أبن باديس في مناهج التعليم كالتاريخ والتربية الوطنية والتربية الاسلامية ومناهج مؤسسات التعليم الديني ومادتي الديمقراطية وحقوق الانسان ، على ان تبرز مفاهيم الوطن والعدالة والتسامح واحترام الرأي الاخر وحق الاختلاف ومهارات الحوار والاتصال.